

السنة الرابعة

فلسفة عربية

المحاضرة الثالثة

د. رائده الدالي

كيف تكون حيّ بن يقظان

نص القصة، يليه قراءة وتحليل:

ذكر سلفنا الصالح -رضي الله عنهم- أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، (وبها شجر يثمر نساء، وهي التي ذكر المسعودي أنها جوارى الواقواق) لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعداداً، وإن كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء، فإنهم يرون أن أعدل ما في المعمورة الإقليم الرابع فإن كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم أنه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية، فقولهم إن الإقليم الرابع أعدل بقاع الأرض (الباقية)، وجهاً، وإن كانوا إنما أرادوا بذلك أن ما على خط الاستواء شديد الحرارة، كالذي يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه. وذلك أنه قد برهن في العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكون الحرارة إلا الحركة، أو ملاقة الأجسام (الحارة) والإضاءة؛ وتبين فيها أيضاً أن الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشيء من هذه الأمور المزاجية؛ وقد تبين أيضاً أن الأجسام التي تقبل الإضاءة أتم القبول، هي الأجسام الصقلية غير الشفافة، يليها في قبول ذلك الأجسام الكثيفة فلا تقبل الضوء بوجه. وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو علي وحده خاصة، ولم يذكر من تقدمه. فإذا تم وصحت هذه المقدمات، فاللزام عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجساماً آخر تماسها، لأن الشمس في ذاتها غير حارة، ولا الأرض أيضاً تسخن بالحركة لأنها

ساكنة؛ وعلى حالة واحدة في شروق الشمس عليها وفي وقت مغيبها (عنها) وأحوالها، وفي التسخين والتبريد، ظاهرة الاختلاف للحس في هذين الوقتين.

ولا الشمس أيضاً تسخن الهواء أولاً ثم تسخن بعد ذلك الأرض بمتوسط سخونة الهواء، وكيف يكون ذلك ونحن نجد أن ما قرب من الهواء من الأرض في وقت الحر، أسخن كثيراً من الهواء الذي يبعد عنه علواً؟ فبقي أن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير فإن الحرارة تتبع الضوء أبداً حتى إن الضوء إذا أفرط في المرآة المقعرة أشعل ما حاذها. وقد ثبت في علوم التعاليم بالبراهين القطعية أن الشمس كروية الشكل، وأن الأرض كذلك، وأن الشمس أعظم من الأرض كثيراً وأن الذي يستضيء من الأرض بالشمس أبداً هو أعظم من نصفها، وأن هذا (النصف) المضيء من الأرض في كل وقت أشد ما يكون الضوء في وسطه لأنه أبعد المواضع من الظلمة (عند محيط الدائرة) ولأنه يقابل من الشمس أجزاءً أكثر، وما يقرب من المحيط كان أقل ضوءاً حتى ينتهي إلى الظلمة عند محيط الدائرة الذي ما أضاء (موقعه) من الأرض (قط)، وإنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه، وحينئذ تكون الحرارة في ذلك الموضع أشد ما يكون فإن كان الموضع مما تبعد الشمس (فيه) عن مسامته رؤوس أهله كان شديد البرودة جداً وإن كان مما تدوم فيه المسامته كان شديد الحرارة، وقد ثبت في علم الهيئة أن بقاع الأرض التي على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين في العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان، وهي في سائر العام ستة أشهر جنوباً منهم، وستة أشهر شمالاً منهم: فليس عندهم حر مفرط، ولا برد مفرد.

وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة.

وهذا القول يحتاج إلى بيان أكثر من هذا، لا يليق بما نحن بسبيله، وإنما نبهناك عليه، لأنه من الأمور التي تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أب ولا أم فمنهن من بت الحكم وجزم القضية بأن (حي بن

يقظان) من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبراً نقصه عليك فقال:

إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكفاف، كثيرة الموائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أخت (ذات جمال وحسن باهر) فعصلها ومنعها الأزواج إذا لم يجد له كفواً.

وكان له قريب يسمى (يقظان) فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبه المشهور في زمنهم.

ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً، فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها، وضعت في تابوت أحكمت زمه بعد أن أروتها من الرضاع، وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر، وقلبها يحترق صباباً (به)، وخوفاً عليه ثم إنها ودعته وقالت:

(اللهم إنك "قد" خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً، ورزقته في ظلمات الأحشاء، وتكفلت به حتى تم واستوى، وأنا قد سلمته إلى لطفك، رجوت له فضلك، خوفاً من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد، فكن له ولا تسلمه يا أرحم الراحمين).

ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد، فاحتملته من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها، وكان المد يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام، فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر، عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر، محجوبة عن الشمس تزور عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت، ثم أخذ المء في النقص والجذر عن التابوت الذي فيه الطفل، وبقي التابوت في ذلك الموضع، وعلت الرمال بهبوب الرياح وتراكت بعد ذلك سدت باب الأجمة على التابوت وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة، فكان المد لا ينتهي إليها وكانت مسامير التابوت قد قلقت، وألواحه قد اضطربت عند الرمي الماء إياه في تلك الأجمة، فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة، ووقع صوته في آذن ظبية فقدت طلاها، خرجت من كناسه فحملة العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتنبت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى

وصلت إلى التابوت، ففحصت عنه بأظلافها وهو هوء (ويئن) من داخله، حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه، فحنت الطيبة وحنّت عليه ورئمت به والقمتة حلمتها وأروته لبناً سائغاً وما زالت تتعهده وتربيته وتتدفع عنه الأذى.

هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد، ونحن نصف هنا كيف تربي وكيف انتقل في أحواله حتى بلغ المبلغ العظيم.

وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا أن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافئ وتعادل في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبية جداً وكان بعضها يفصل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيو لتكون الأمشاج وكان الوسط فيها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الإنسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدثت في الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح للذي هو من أمر الله تعالى وتشبثت به تشبثاً يعثر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل إذ قد تبين أن هذه الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنها بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم فمن الأجسام مالا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جداً ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهي الأجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف في ميلو الضياء وتختلف بحسب ذلك ألوانها ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهي الأجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لإفراط الضياء وكذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى فياض أبداً على جميع الموجودات، فمنها مالا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهي الجمادات التي لا حياة لها، وهذه بمنزلة الهواء في المثال المتقدم، ومنها ما يظهر أثره فيه وهي أنواع النبات بحسب استعداداتها وهي بمنزلة الأجسام الكثيفة في المثال المتقدم، ومنها ما يظهر أثره فيه ظهوراً كثيراً، وهي أنواع الحيوان وهي بمنزلة الأجسام الصقيلة في المثال المقدم.

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكي صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضاً من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الإنسان خاصة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق آدم على صورته).

فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها، وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها، وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا كله مبين في مواضعه اللائقة به، فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق.

قالوا: فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة، خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى في كمالها فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاثة قرارات، بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلات بمثل ذلك الهوائي الذي امتلات منه القرارة الأولى، ألا أنه ألطف منه.

وسكن في هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد، طائفة من تلك القوى التي خضعت له وتوكلت بحراستها والقيام عليها، وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجليلها إلى الروح المتعلق بالقرارة الأولى.

وتكون أيضاً بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية، نفاخة ثالثة مملوءة جسماً هوائياً إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها، فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذي ذكرناه.

قصة حي ابن يقظان

كيف تكون حي ابن يقظان قراءة وتحليل

مقدمات من علم الفلك والجغرافيا والعلم الطبيعي:

افتتح ابن الطفيل قصته بمعطيات جغرافية تحيلنا إلى علوم التعاليم التي اعتمد فيها على المعطيات المثبتة بالبراهين كما ذكر.

وعلوم التعاليم هي ذلك الجزء الأول من العلوم النظرية وهو العلم الرياضي ويشمل:

علم الحساب- علم الهندسة- علم الهيئة- الموسيقى.

أما الجغرافيا فتدخل ضمن علم الهيئة، والغاية منها النظر في الأرض، لأن النظر في الأرض يخدم ما يريد ابن الطفيل الإشارة له، وهو إمكان التولد الطبيعي للإنسان من دون أم ولا أب.

وكذلك للمقايضة بين صورة الأرض وصورة الإنسان.

فالأرض هي المدخل للنظر في علم الهيئة(الأفلاك- الكواكب- شعاعات الكواكب) وأحكام النجوم(الأبراج ودلالاتها وتأثيراتها).

ذلك أن الأرض فيها الأقاليم السبعة الموازية لأقاليم الفلك السبعة حيث ينقسم الفلك على الكواكب السبعة على قدر تتابعها وتواليها. بالإضافة إلى البروج الاثنا عشر واشترائها في هذه الأقاليم. ذلك أن البروج هي قسمة وهمية في سطح الفلك المحيط يفصلها اثنا عشر خطاً وهمياً.

افتتح ابن طفيل قصته بدليل نقلي بقوله: "(ذكر سلفنا الصالح رضي الله عنهم أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من دون أم ولا أب). هذا الرأي الذي سيتبناه ابن طفيل في مقابل من يعتقد أن الإقليم الرابع هو المكان الذي تولد فيه حي تولد ذاتياً طبيعياً. هذا الاتجاه الذي يرى أن الإقليم الرابع هو أعدل الأقاليم وأفضلها بالنسبة لتأثيرات الشمس والكواكب، والهواء فيه متوسط بين الحر والبرد، كما أن الزمان ينقسم فيه إلى أربعة أقسام(تعاقب الفصول الأربعة على هذه البقعة). ومناخ الإقليم ملائم للتولد .

إلا أن ابن طفيل يبطل هذا الاعتقاد بقوله: "فإنهم يرون أن أعدل ما في المعمورة الإقليم الرابع، لأنه صح عندهم أنه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية... أرادوا بذلك أن ما على خط الاستواء شديد الحرارة وهذا خطأ يقوم البرهان على خلافه".

أدلة ابن طفيل من العلم الطبيعي بحسب ما أثبتته ابن سينا:

1- لا سبب لتكون الحرارة إلا الحركة، أو ملاقة الأجسام الحارة والإضاءة.

- 2- الشمس بذاتها غير حارة.
- 3- الأجسام التي تقبل الإضاءة أتم القبول هي الأجسام الصقيلة غير الشفافة. يليها الأجسام الكثيفة غير الصقيلة.
- 4- الأجسام الشفافة التي لا شيء فيها من الكثافة لا تقبل الضوء بوجه. ثم يقول: "وهذا مما أثبتته الشيخ أبو علي وحده خاصة ولم يذكر من تقدمه.

إذا صحت هذه المقدمات فإن:

- الشمس لا تسخن الأرض، لأن الشمس في ذاتها غير حارة.
- ولا الأرض تسخن بالحركة لأنها ساكنة وفي حالة واحدة في شروق الشمس عليها وفي وقت مغيبها عنها.
- ولا الشمس تسخن الهواء وبتوسط الهواء تسخن الأرض. والدليل ما قرب من الأرض من الهواء أسخن من الهواء الذي يبعد علواً.

النتيجة: إن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير، فإن الحرارة تتبع الضوء أبداً.

ثم يستند ابن طفيل إلى ما ثبت في علم الهيئة لإثبات الاعتدال عند خط الاستواء:

من أن بقاع الأرض التي تحت خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين في العام، عند حلولها رأس الحمل، وعند حلولها رأس الميزان، وهي في سائر العام ستة أشهر جنوباً منهم، وستة أشهر شمالاً منهم. وليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة. وهذا هو المكان الذي تبناه ابن طفيل للتولد الطبيعي.

التولد الطبيعي لحي ابن يقطان

نص القصة ويليهِ قراءة وتحليل:

هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد، ونحن نصف هنا كيف تربى وكيف انتقل في أحواله حتى بلغ المبلغ العظيم.

وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا أن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافئ وتعادل في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبية جداً وكان بعضها يفصل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيو لتكون

الأمشاج وكان الوسط فيها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الإنسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدثت في الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح للذي هو من أمر الله تعالى وتشبثت به تشبثاً يعثر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل إذ قد تبين أن هذه الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنها بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم فمن الأجسام مالا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جداً ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهي الأجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف في ميلو الضياء وتختلف بحسب ذلك ألوانها ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهي الأجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لإفراط الضياء وكذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى فياض أبداً على جميع الموجودات، فمنها مالا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهي الجمادات التي لا حياة لها، وهذه بمنزلة الهواء في المثال المتقدم، ومنها ما يظهر أثره فيه وهي أنواع النباتات بحسب استعداداتها وهي بمنزلة الأجسام الكثيفة في المثال المتقدم، ومنها ما يظهر أثره فيه ظهوراً كثيراً، وهي أنواع الحيوان وهي بمنزلة الأجسام الصقيلة في المثال المقدم.

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكي صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضاً من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الإنسان خاصة، وإليه الإشارة بقوله عليه وسلم (إن الله خلق آدم على صورته).

فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها، وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها، وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا كله مبين في مواضعه اللاحقة به، فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق.

قالوا: فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة، خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى في كمالها فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاثة قرارات، بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتألت بمثل ذلك الهوائي الذي امتألت منه القرارة الأولى، ألا أنه ألطف منه.

وسكن في هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد، طائفة من تلك القوى التي خضعت له وتوكلت بحراستها والقيام عليها، وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجلبها إلى الروح المتعلق بالقرارة الأولى.

وتكون أيضاً بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية، نفاخة ثالثة مملوءة جسماً هوائياً إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها، فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذي ذكرناه.

واحتاج بعضها إلى بعض: فالأولى منها حاجتها إلى الآخرين، حاجة استخدام وتسخير، والآخرين حاجتهما إلى الأولى حاجة المروءوس إلى الرئيس والمدير إلى المدبر، وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الأعضاء رئيس لا مروءوس.

وأحدهما وهو الثاني أتم رئاسة من الثالث، فالأول منها لما تعلق به الروح واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبري وتشكل أيضاً الجسم الغليظ المحقق به على شكله، وتكون لحمًا صلباً وصار غلاف صفاقي يحفظه، وسمي العضو كله (قلباً) واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وإفناء الرطوبات إلى شيء يمدّه ويغذّوه، ويخلف ما تحلل منه على الدوام، وإلا لم يطل بقاؤه، واحتاج أيضاً إلى أن يحس بما يلانمّه فيجذبّه، وبما يخالفه فيدفعه، فتكفل له العضو الآخر بحاجته الأخرى.

وكان المتكفل بالحس هو الدماغ والمتكفل بالغذاء هو الكبد، واحتاج كل واحد من هذين إليه في أن يمدّهما بحرارته، وبالقوى المخصوصة بهما التي أصلها منه، فانتسجت بينهما لذلك كله مسالك وطرق بعضها أوسع من بعض بحسب ما تدعو إليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق.

ثم ما زالوا يصفون الخلقة كلها والأعضاء بجملتها على حسب وصفه الطبيعيون في خلقة الجنين في الرحم، لم يغادروا من ذلك شيئاً إلى أن كمل خلقه وتمت أعضائه، وحصل في حد خروج الجنين من البطن، واستعانوا في وصف كمال ذل بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة، وأنها كانت قد تهيأت لأن يتخلق منها كل ما يحتاج إليه في خلق الإنسان من الأغشية المجللة لجملته بدنه وغيرها.

فلما كمل انشقت عنه تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان قد لحفه الجفاف.

ثم استعاث ذلك الطفل عند فنائه مادة غذائه واشتداد جوعه فلبته طيبة فقدت طلاها.

ثم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وما وصفته الطائفة الأولى في معنى التربية فقالوا جميعاً:

التولّد الطبيعي لحيّ قراءة وتحليل

بعد المقدمات التي أشار إليها ابن طفيل عن الأرض، والفلك، والكواكب، وشعاعاتها، وتأثيرها على الموجودات في عالم الكون والفساد، وبعد أن بذل جهداً في توضيح تأثير أشعة الشمس، قدم لنا إشارة إلى تكوّن الأرض، لقوله (طينة كبيرة) ومن ثم أحال القول على تكوّن جسد الإنسان (التولّد الطبيعي). فجعل الطينة مقابل النطفة. ثم أشار بمصطلحاته إلى إمكانية تحقيق المعرفة بهذا التولّد بالقياس إلى تكوّن الجنين في الرحم.

أن تكون معرفة تركيب جسد الإنسان مقياساً لمعرفة العالم وتركيبه، إنما هي نظرية قال بها الحكماء ومنهم إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وهي النظرية التي ترى أن الإنسان عالم صغير، كما أن العالم إنسان كبير، فالعالم بأسره كائن حي واحد، يشبه في تركيبه وفي نظامه

إنسان واحد. يشبه كائن واحد. وظف ابن طفيل معطيات العلم الطبيعي، وعلم الطب في وصف نشوء حي.

كيف تكون حي:

يقول ابن طفيل: "إن بطناً من تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مرّ السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد، والرطب باليابس، امتزاج تعادل وتكافؤ في القوى" هذه الطبائع متضادة لكنها على الاعتدال لا يغلب أحدها على الآخر فتكون متكافئة في قوتها.

ثم قال: "هذه الطينة كبيرة جداً، وكان يفضل بعضها على بعض في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوّن الأمشاج وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الإنسان".

كما أن الأرض وما عليها تكون من العناصر الأربعة كذلك جسد الإنسان مكون من هذه العناصر. وكما أنه من العناصر الأربعة تتكون الأخلاط الأربعة التي سيتكون منها المزاج الذي سيكون المادة لتكون الموجودات، كذلك الأخلاط الأربعة في بدن الإنسان.

ويتابع ابن طفيل على رأي أصحاب العلم الطبيعي:

1- تبدأ الطبيعة فعلها بامتزاج الطبائع الأربعة على النسبة المعتدلة، الحار بالبارد، والرطب باليابس امتزاج تعادل وتكافؤ في القوى. هذه الطبائع هيولاهما الأركان الأربعة: الماء (رطب) التراب (يابس)، النار (حارة)، الهواء (بارد). (المزاج هو الكيموس، والكيموس هو خلط له مزاج ما يعطي نوع ما. وهو أصل النبات، ويتكون من رطوبة الماء ولطائف أجزاء التراب.

2- تكون الأمشاج (الأخلاط الأربعة) وهي: الدم (الرطوبة)، الخلط السوداوي (اليبوسة) الخلط الصفراوي (الحرارة)، الخلط البلغمي (البرودة).

هذه الأخلاط إذا اعتدلت استقام الجسد وكان خلوا من الأمراض من جهة، ومن جهة أخرى- كما ذكر الأطباء الطبيعيون ومنهم ابن سينا - فإن هذه الأخلاط تؤثر في أخلاق الإنسان كاللين، والعزم، والحدة، والأناة. وأما الاعتدال فهو أن لا يغلب خلق من أخلاقه، ولا تميل به طبيعة من أخلاقه عن المقدار.

3- تخمرت الطينة بتأثير شعاع الشمس والكواكب وكان الوسط أعدل ما فيها، فحدثت نفاخة صغيرة منقسمة قسمين بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائي بغاية الاعتدال. وهنا يقول ابن طفيل "وتعلق به الروح الذي هو من أمر الله تعالى، وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل، إذ تبين أن هذا الروح دائم

الفيضان من عند الله عز وجل وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم".

المشابهة بين فيضان الروح وفيضان نور الشمس

الأجسام وقبولها الإضاءة:

الأجسام إما أجسام فلكية، وإما أجسام أرضية.

الأجسام الأرضية: هي الأجسام في عالم ما تحت فلك القمر (المكون من العناصر الأربعة) أما الأجسام الفلكية: فهي الفلك وما يحويه من كواكب ويسمى باصطلاح الفلاسفة والحكماء عالم ما فوق فلك القمر. من عنصر غير الطبائع الأربعة (الحرارة، البرودة، الرطوبة، اليبوسة).

وبناء على ما تبرهن في العلوم الطبيعية بنى ابن الطفيل مقدماته وميّز بين الأجسام الصقيلة والأجسام المشفة، وكيف تؤثر شعاعات الشمس والكواكب على عالم ما تحت فلك القمر.

- من الأجسام لا يستضاء به، مثل الهواء الشفاف.
- من الأجسام ما يستضاء به بعض استضاءة. كالأجسام الكثيفة غير الصقيلة وتختلف في ميول الضياء، وتختلف بحسب ذلك ألوانها.
- من الأجسام ما يستضاء به غاية الاستضاءة. وهي الأجسام الصقيلة كالمرآة. فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لإفراط الضياء.

وكما أن هذه الأجسام تختلف في قبولها لهذه الأنوار، فكذلك تختلف الموجودات في قبولها للروح الفياض عليها أبداً الذي هو من أمر الله تعالى فمنها:

- 1- الجمادات لا حياة فيها، لعدم استعدادها لقبول الفيض. وهذه بمنزلة الهواء.
- 2- ومنها ما يظهر أثره فيه وهي أنواع النبات بحسب استعدادها. وهي بمنزلة الأجسام الكثيفة. أنواع الحيوان وهي الأكثر قبولاً.
- 3- ومنها ما يظهر أثره فيه ظهوراً كثيراً وهي أنواع الحيوان. وهي بمنزلة الأجسام الصقيلة. ومن الأجسام الصقيلة ما يزيد في شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكي صورة الشمس ومثالها. مثل القمر.

وكذلك من الحيوان ما يزيد في شدة قبوله للروح أنه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الإنسان خاصة. وهنا يستشهد ابن طفيل بقول الرسول (ص): "إن الله خلق آدم على صورته". فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها وتبقى هي

وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته، كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون إلا للأنبياء. وهنا يشبه ابن الطفيل انعكاس النور الإلهي على قلب الإنسان بانعكاس نور الشمس على وجه القمر الصقيل. ذلك أن الشمس نورها ذاتي، والقمر نوره مستمد من نور الشمس. وإلى هذه المرتبة أشار ابن الطفيل في تمهيده لقصة حي، وهي مرتبة الأنبياء وبعض الأولياء.

وصف التخلق

بعد تعلق الروح

- 1- سجدت له كل القوى وسخرت للروح، وكأنها الملائكة التي سجدت لآدم.
- 2- ثم تشكلت نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاثة قرارات (بطون) بينها حجب لطيفة ومسالك ومنافذ وامتلات بمثل ذلك الهوائي الذي امتلات منه القرارة الأولى إلا أنه ألطف.
- هنا يشير ابن طفيل إلى أن هذه البطون الثلاثة انقسمت من واحد. وسكنت طائفة من القوى تحرسها، وتنقل أخبارها إلى الروح الأول المتعلق بالقرارة الأولى.
- 3- ثم تكون نفاخة ثالثة مقابلة للقرارة الثانية مملوءة جسماً هوائياً، إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن فيها طائفة من القوى تحرسها.
- 4- القرارة الأولى والثانية والثالثة هي أول ما تخلق من تلك الطينة الكبيرة. وكل واحدة منها محتاج إلى الآخر، المعادن، النبات، الحيوان. في مقابل الأعضاء الثلاثة التي بها قوام جسد الإنسان وهي: الكبد، القلب، الدماغ.
- الأول: وهو القلب الذي تعلق به الروح فاشتعلت حرارته، وصار في القلب الحرارة الغريزية التي بها صلاح الجسد كله وقوامه. ولما كانت الحرارة تقني الرطوبات احتاج إلى من يمدّه بالغذاء ويخلف ما تحلل منه على الدوام وإلا لم يطل بقاءه فكان **المتكفل بالغذاء هو الكبد**. ثم احتاج إلى أن يحس بما يلائمه فيجذب به، وبما يخالفه فيدفعه فكان **المتكفل بالحس هو الدماغ**.

وبما أن الدماغ والكبد احتاجا إلى القلب في أن يمدّهما بالحرارة الغريزية، انتسجت بينهما مسالك وطرق بعضها أوسع من بعض بما تحتاج إليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق.

إشارة:

قوى النفس النباتية مقرها الكبد، وأفعالها في الأوراد إلى أطراف البدن. (**فعلها الغذاء والنمو**)

قوى النفس الحيوانية مقرها القلب وأفعالها تجري في العروق الضوارب إلى أطراف الجسد. (فعلها الحس والحركة)

قوى النفس الناطقة مقرها الدماغ أفعالها تجري مجرى الأعصاب إلى سائر أطراف الجسد. (أفعالها الفكر والتمييز).

إن الترتيب الذي وضعه ابن طفيل لتكون الأعضاء يشير إلى عملية التسخير، وتسخير شيء لشيء هو الذي يحدد التراتبية، فالمتقدم في الوجود هو لأجل المتأخر وله، والغاية حصول التمام والكمال. فكل عضو يخدم عضو آخر في أبدان الحيوانات إما في بقائه، أو في تمييمه أو في أفعاله ومنافعه.

وكذلك وجدت المعادن والنبات والحيوان مسخرًا للإنسان الذي هو الآخر في الظهور، وكل ما تقدمه فهو لأجله. وبهذا يشير ابن طفيل أن وجود المخلوقات على هذا الترتيب إنما هو لحكمة وغاية، وأنها لم تخلق عبثًا.

ثم يقول ابن طفيل ما زالوا يصفون الخلقة كلها والأعضاء بجملتها حسب ما وصفه الطبيعيون في خلقة الجنين في الرحم لم يغادروا من ذلك شيئًا، واستعانوا في وصف كمال ذلك بتلك الطينة المتخمرة وأنها كانت قد تهيأت لأن يتخلق منها لكل ما يحتاج إليه في خلق الإنسان من الأغشية المجللة لبدنه، فلما كمل انشقت تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان قد لحقها الجفاف.

ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه، واشتداد جوعه، فلبته ظبية فقدت طلاها.

كيف تربى حي بن يقظان

نص القصة ويليهِ قراءة وتحليل:

إن الظبية التي تكفلت به وافقت خصباً ومرعى أثيثاً فكثرت لحمها ودر لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي، وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارَت إليه.

ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج في المشي وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراته الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسوته له بطواحنها ومتى عاد إلى اللبن أروته ومتى ظمأ إلى الماء أروته ومتى ضحا ظللته ومتى خسر أدفاته

وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول وجللته بنفسها وبريش كان هناك، مما ملئ به التابوت أولاً في وقت وضع الطفل فيه وكان في غدوها ورواحها قد ألفهما ربرب يسرح ونعش ويبيت معهما حيث ميبتهما.

فما زال الطفل مع الطباء على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده، وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الطباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع، إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة.

فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها فلما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته، حدث له نزوع إلى بعضها وكراهية لبعض.

وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار وبالأشعار وأنواع الريش وكان يرى ما لها من العدو وقوة البطش وما لها من الأسلحة المعدة لمداغة من ينازعها، مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصي والمخالب، ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع المداغة عن نفسه ولا الفرار عن شيء منها.

وكان يرى أترابه من أولاد الطباء قد نبت لها قرون بعد أن لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك كله، فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه، وكان ينظر إلى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم، وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفصول من سائر الحيوان فيراها مستورة، أما مخرج أغلظ الفضلين فبالأذنان، وأما مخرج أرقهما فبالأوبار وما أشبهها، لأنها كانت أيضاً أخفى قضباناً منه فكان ذلك يكربه ويسوؤه فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك وما قد أضرب به ناقصه، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خافه وبعضه قدامه وعمل من الخواص والخلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الأوراق فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ويخفف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه إلا أنه على كل حال قصير المدة واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل منتنها واكن يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوي منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة، رأى أن ليده فضلاً كثيراً على أيديها إذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذئب والسلاح الطبيعي.

كيف تربى حي بن يقظان قراءة وتحليل

المرحلة الأولى النفس النباتية:

النفس النباتية كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما ينمو ويربو ويغتذي.

وهي أول مرتبة من مراتب الوجود في الجسد الطبيعي

تكفلت الطبيعة بتربية حي وتغذيته من لبنها لمدة حولين، ألفها حي حتى أنه يبكي إذا أبطأت عنه. وبعد أن مشى وأثغر كانت ترعاه وتحنو عليه في كل حالاته.

المحاكاة: (حي كائن منفعل)

كان الصوت هو وسيلة حيّ الوحيدة في التواصل والتكيف مع الطبيعة وباقي الحيوانات ذلك أن حي قد ألف الطبيعة وألف القطيع الذي ينتمي إليه، حتى أنه كان يحاكي أصواتها، في الاستصراخ والاستتلاف، والاستدعاء، والاستدفاع.

حيّ وهو المختلف في هذه المملكة الحيوانية، فإنه يزيد على هذه الطباء في قدرته على محاكاة جميع ما يسمعه من أصوات الحيوان والطير محاكاة شديدة (لقوة انفعاله لما يريد).

وفي هذه المرحلة ألفته الوحوش وألفها، ولم تتكره ولا أنكرها.

المرحلة الثانية النفس الحيوانية:

"ولما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته، حدث له نزوع إلى بعضها، وكراهية لبعض".

النظر والملاحظة والمشاهدة.

يشير ابن طفيل إلى النفس الحيواني عند حيّ. والتي هي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك من الجزئيات، ويتحرك بالإرادة.

تنقسم هذه النفس إلى نوعين من القوى:

أولاً القوى المدركة: وهي إما أن تدرك الأمور الخارجية بواسطة الحواس الخمسة.

قوى النفس الظاهرة (الحواس الخمس) كل قوة منها مختصة بموضوع معين لا تشاركها فيه قوة أخرى:

1- القوة الباصرة ومجراها في العينين تختص بنقل الأنوار والظلم والألوان والأجسام وكل صور الموجودات كما هي.

2- القوة السامعة ومجراها في الأذنين تختص بنقل الأصوات المختلفة كما هي.

3- القوة الذائقة ومجراها في اللسان تختص بنقل الطعوم المختلفة.

- 4- القوة الشامة ومجراها المنخرين تختص بنقل الروائح المختلفة.
- 5- القوة اللامسة ومجراها الجلد في كل بدن الحيوان. وبهذه القوة اللامسة يحكم بالتضاد بين الحار والبارد، والرطب واليابس، والصلب واللين، والخشن والأملس.

وبما أن حيّ مكون من الأخلاط الأربعة، وهذه الأخلاط لها مزاجات، وكانت المتضادات في حالة تغير واستحالة بين الزيادة والنقصان، فإن هذا التغير يخرج المزاج تارة عن الاعتدال بزيادة في أحد الأخلاط والطباع أو إلى نقصان في أحدها.

وعليه فإن:

- كل محسوس يخرج المزاج عن الاعتدال فإن الحاسة تكرهه وتتألم منه، وتهرب عنه.
- كل محسوس يرد المزاج إلى الاعتدال فإن الحاسة تحبه وتلتذ به وتطلبه.
- 2- أو تدرك الأمور الداخلية، كالمعاني والصور بواسطة الحس المشترك، والخيال والوهم والمتخيلية، والحافظة. أما الصور فتدرك بواسطة الخيال. وأما المعاني مثل ضار أو عدو ومنفور عنه أو محبوب ومطلوب تدرك بواسطة القوة الوهمية.

ثانياً القوى المحركة: وهي القوى الباعثة إلى الشوق أو كراهية. وفيها قوتا النزاع إلى المدرك، إما نزاع نحو جذب فهو للمتخيل نافعاً وملائماً، وتسمى القوة الشهوانية. والنزاع نحو الدفع للمتخيل ضاراً أو غير ملائم على سبيل الغلبة يسمى قوة غضبية.

وفي هذا المقام فإنّ حيّ ينفعل بنفسه الحيوانية المحركة، والقوة المحركة تنقسم إلى القوة النزوعية الشوقية حيث ترسم في التخيّل صورة مطلوب (فتشعر النفس باللذة فتتشوق إلى مطلوبها فتتحرك إليه بالقوة الفاعلة (القوة الشهوانية)، أو تتخيل مهروب منه فتتحرك النفس بالقوة الفاعلة (الغضبية).

فالقوة المصورة التي يثبت فيها مثال للصور المحسوسة التي يتلقاها حيّ من الخارج عن طريق الحواس الخمس الظاهرة، وتجتمع في الحس المشترك كما هي بشكلها وهيئتها وكل ما يتعلق بها أولاً ثم تؤديها القوة الحاسة إلى المصورة فتثبت فيها، تكون موضوعاً لتأمل حيّ.

فيشعر بالملائم والموافق والمحبوب والمطلوب. ويشعر بالمخالف والمكروه، والمهروب منه.

المرحلة الثالثة النفس الانسانية بقوتها المفكرة: القياس والمقارنة.

القوة المفكرة هي قوة تفعل في الخيالات تركيباً وتفصيلاً، وتجمع بين بعضها وبعض، وتفرق بين بعضها وبعض، وكذلك تجمع بين الخيالات وبين المعاني التي في الذاكرة.

هذه القوة إذا استعملها العقل سميت مفكرة، وإذا استعملها الوهم سميت متخيلة.

ثم نظر حيّ إلى صور الحيوانات المتمثلة في نفسه ويشاهدها مع إجراء قياس ومقارنة بينه وبينها فوجد أن:

- 1- جميعها كاسية، وهو عارٍ.
- 2- سريعة في العدو البطش. وهو ضعيف العدو لا يستطيع الفرار من الوحوش التي تنازعه الثمرات.
- 3- جميعها مزودة بأسلحة طبيعية لدفع الضرر عن نفسها. وهو خلو من أي سلاح.
- ثم نظر إلى أترابه من أولاد الطباء فرأى كيف تنبت لها قرون وتصبح قوية في العدو من بعد ضعف، ولم يرى لنفسه شيئاً من ذلك. فكان يفكر في ذلك ولا يعرف ما السبب.
- 4- ثم كان ينظر إلى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً. **ولا يجد لنفسه شبيهاً.**
- 5- ثم نظر إلى مخارج فضول الحيوان فرآها مستورة، وقضبانها أخفى. فكان ذلك يكرهه ويسوؤه. وطال همه وهو قد قارب سبعة أعوام

موقف حيّ من نقصه وعجزه واكتشاف فضل يده

- 1- علق أوراق الشجر بطريقة عشوائية، لكنه سرعان ما جف وتساقط.
- 2- ضاعف الأوراق وخصف بعضه على بعض كان أطول لبقائه، لكنه قصير المدة.
- 3- اتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له، فيحمل على الضعيف منها، ويقاوم القوي منها **فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة**. ووجد ليده فضلاً كثيراً على أيديها. بها ستر عورته، وبها اتخذ العصي ليدافع عن حوزته، فاستغنى عما أراده من الذنب والسلاح. **وفي خلال ذلك ترعرع وربى على السبع سنين.**
- 4- ثم استبدل ورق الشجر بعد أن طال العناء بأن صادف نسراً ميتاً وأخذ ريشه وأخذ جناحيه وذنبه وعلقها على جسده فأكسبه ذلك ستراً ووقاية ومهابة في نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه. وصار لا يدنو منه سوى الطيبة التي كانت أرضعته وربته، فإنها لم تفارقه ولم يفارقها، حتى أسنت وضعفت فكان يرتاد بها إلى المراعي ويجتني لها الثمرات ويطعمها، وما زال الهزال والضعف يستولى عليها إلى أن **أدركها الموت**. فسكنت حركاتها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها. وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها **فأخذ يبحث عن السبب.**

